ظاهرة سوء استعمال المفردات، واللغة بشكل عام، وأثرها على التسليم الرسولي للإيمان

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٠٩

www.coptology.org

كان سوء استعمال المفردات هو أحد عناصر تجربة آدم وحواء في الجنة (تك ٣: ١ – ٧)، ولازال سوء استعمال المفردات هو الطابع المميِّز لكل الهرطقات ابتداءً من أول مدرسة للهراطقة جميعاً، وهي المدرسة الأريوسية التي تبنَّت أساساً لغوياً أقامت عليه فهمها للعقيدة. بدا هذا الأساس اللغوي في أن كلمة "ابن" تختلف عن كلمة "أب"، وبالتالي يجيء "الأب" أولاً، ومن ثمَّ يجيء "الابن" بعد ذلك.

وهكذا جاءت كلمة "الثاليا"[١] أي "المأدبة"، اسماً جميلاً لمأدبةِ سمومٍ حَوَتْ عباراتٍ مسجوعةٍ سهلة الحفظ تخلع الإيمان من جذوره بقوة وطغيان الكلمة:

"كان هناك زمانٌ لم يكن الابن فيه مولوداً".

وهكذا، وطبقاً لآريوس، فإن عبارة "مولود من الآب" لا تناسب جوهر اللاهوت؛ لأن الولادة تقسيم.

كما أن عبارة "اللاهوت لم يلد ولم يُولد" التي طبقها أريوس على الآب والابن، صارت فيما بعد إحدى عبارات نسطور التي أخذها عن أريوس، حيث طبقها على التجسد نفسه.

---

(١) كلمة "ثاليا" معناها مأدبة أدبية، وهي العنوان الذي اتخذه أريوس لكتابه الذي وضع فيه أفكاره، وقد صاغه على شكل قصيدة منظومة، ذات لحن أنثوي – بحسب تعبير أثناسيوس، راجع المقالة الأولى ضد الأريوسيين: الفصل الثاني من الترجمة العربية التي أصدرها المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة، عدة طبعات.

الصراع الخريستولوجي حول المفردات

كيف نعبِّر عن التجسُّد، وفي ذات الوقت، عن الإيمان ببقاء الناسوت متحداً إلى الأبد بلاهوت الابن الكلمة؟

رغم أن هذا السؤال يبدو عادياً، إلاَّ أنه لا يخلو من خداع اللغة، يظهر ذلك في حذف أي إشارة إلى طبيعتين متحدتين.

أمَّا تعبير "طبيعة واحدة للكلمة المتجسد"، فهو يؤكد وجود الطبيعتين؛ لأن كلمة "المتجسِّد" تُطلق على تأنس ابن الله الكلمة.

وما نؤكد عليه أن تعليم مجمع خلقيدونية ٤٥١م لم يكن تعليماً نسطورياً، ولم يكن تعليم هذا المجمع ضد تعليم أو ضد رسائل القديس كيرلس السكندري، بل جاء قرار المجمع ضد: النسطورية، والأوطاخية، والمونوفيزية.

إن ما أكده المجمع في ٤٥١م هو حقيقة تجسُّد ابن الله. وتعبير "في طبيعتين" هو تعبير العهد الجديد نفسه؛ لأن الرسول بولس استخدم تعبير "في المسيح" بشكل وافر، وهو ما يعبِّر عن بقاء كل مؤمن "في المسيح" حياً إلى الأبد، لأننا بدون المسيح هباء.

كيف نعبر هوة خداع الألفاظ؟

قد يستخدم البعض، بعض كلمات قد توقعه في شر تأييد الهرطقات القديمة، وقد يكون هذا الاستخدام عن جهل، وقد يكون دفاعاً أعمى عن بعض الأشخاص، فكيف يمكننا أن نعبر هوة خداع هذه الألفاظ، وما هي المقاييس أو المعايير التي نعتمدها في ذلك؟

يجب أن يكون لدينا تمييزاً واضحاً ودقيقاً لِمَا إذا كان الكلام يؤكد على "الإتحاد" الذي يحفظ التمايز والاختلاف، أو ما إذا كان يؤدي إلى أي شكل من أشكال أو أنواع الانفصال.

وعلى ذلك، يمكننا أن نكتشف أن كل مَن يحاول إذابة الناسوت أو فصله عن اللاهوت، هو ينتمي أصلاً إلى مدارس الهرطقات؛ لأن إذابة الناسوت على الطريقة الأوطاخية لا تختلف في جوهرها أو في محصلتها الأخيرة عن فصل اللاهوت عن الناسوت، وهو ما جاء به نسطور.

وفصل اللاهوت عن الناسوت هو ذات المبدأ الذي جاء به أريوس نفسه، وطبَّقه على الثالوث، ففصل الابن عن الآب؛ وكان السبب في ذلك من وجهة نظره أن الأقنوم الثاني له اسمٌ يختلف عن اسم الأقنوم الأول.

وجاء أنوميوس – فيما بعد – وفصل القوة الفاعلة في الله عن جوهر الله، وبات خط الفصل ممتداً في العصر الحديث من أريوس إلى نسطور إلى أوطاخي إلى أنوميوس إلى الأنبا شنودة إلى الأنبا بيشوي.

مدرسة الفصل عند الإكليروس القبطي الحديث

تقوم هذه المدرسة أساساً على فصل الروح القدس عن المواهب[1].

هذا الفصل أدى – فيما بعد – إلى فصل اللاهوت عن الناسوت في سر الإفخارستيا، كما أدَّى إلى اعتبار أقانيم الثالوث مجرد صفات.

وتاريخياً، تجد مدرسة فصل اللاهوت عن الناسوت في سر الإفخارستيا، أساسها اللاهوتي في تعليم الذين أنكروا الثالوث في القرن الثالث، ورائد هؤلاء هو

---

(1) راجع في ذلك بالتفصيل دراستنا عن "مواهب الروح القدس، دراسة في الكتاب المقدس والآباء والطقس" منشورة على موقع: coptology.com.

سابيليوس الذي اعتبر أن أقانيم الثالوث هي مظاهر متنوعة لإلهٍ واحد. وهكذا جاء الأنبا شنودة ليقول إن أقانيم الثالوث هم صفات لجوهر الله، فتحوَّل الأقنوم إلى مجرد صفة، فتحوَّل الآب إلى (الوجود)، والابن إلى (العقل)، والروح القدس إلى (الحياة). وكان طبيعياً أن تكتمل الحلقة بفصل اللاهوت عن الناسوت في سر الإفخارستيا، وفصل الروح القدس عن مواهبه.

وفي تطور حديث يجيء الأنبا بيشوي سكرتير المجمع المقدس ليقول إن القوة الفاعلة في الله *energy* هي غير جوهر الله، وبذلك يكون قد فصل القوة الفاعلة في الله عن جوهر الله، حتى يتسنى له – متضامناً مع الأنبا شنودة – إنكار التعليم الرسولي الخاص بالشركة في الطبيعة الإلهية، هذا التعليم الذي رأيا فيه – سوياً – تعليماً غريباً على المسيحية.

ويبقى السؤال الدقيق: كيف نميِّز التعليم الصحيح؟

والجواب هو، علينا أولاً: أن نميِّز غاية الخطاب، وغاية المتكلم: هل هو من مدرسة الفصل أم من مدرسة الإتحاد.

ثانياً: يجب ألاَّ نتوقف عند كلمة واحدة أو لفظ واحد، بل علينا أن نلاحظ بكل دقة كيف أن لفظاً واحداً بعينه له ما يسنده من ألفاظ أخرى تتجه نحو غاية واحدة، وهي (الشركة). فإذا كان ما يُكتب هو ضد هذه الغاية (الشركة)، فهذا تعليم غير مسيحي، وإذا كان ما يُكتب يعبِّر عن ذوبان الإنسان في الله، فهذا تعليم أوطاخي.

إذن، فقاعدة التمييز الدقيق هي:

- الشركة مع التمايُز.
- أن يظل اللاهوت لاهوتاً.
- أن يظل الناسوت ناسوتاً.

مع الأخذ في الاعتبار أن بقاء اللاهوت والناسوت في الأقنوم الواحد المتجسِّد هو المقياس الصحيح للشركة.

المقياس الأرثوذكسي الدقيق

يتلخص هذا المقياس في أن ما حدث لناسوت الرب هو (لأجلنا نحن)، وأننا نشترك فيه كما اشترك ناسوت الابن في لاهوته، متحداً به.

وحسب تعبير مجمع خلقيدونية، هذا المقياس، هو قاعدة الأسرار الكنسية، وبشكل خاص المعمودية والميرون والإفخارستيا؛ لأننا في أسرار الانضمام للمسيح ننال من المسيح ما حدث لناسوت المسيح وهو:

* فداء أو تحرر من الفساد.
* فداء أو تحرر من الموت.
* نوال المجد الإلهي الأبدي، أو تأله ناسوت الرب.

الكلمات الدالة

ونظراً لأن خداع الألفاظ يأتي من الجهل بقواعد اللغة اليونانية، والاكتفاء بما نُشر من دراسات محدودة المجال من أبحاث الدكتوراه وغيرها، فإننا نضع هنا أمام القارئ الكلمات الدالة على موضوع الشركة في الطبيعة الإلهية، وبعض النصوص التي توضح كيف استخدمها الآباء.

أولاً: الفعل Θεοποιεω

وهو أولاً فعلُ مركب من مقطعين: Θεο و ποιεω والمقطع الأخير يعني: يجعل = to make وهي الكلمة الأكثر استخداماً عند القديس أثناسيوس.

ثانياً: الاسم: Θεοποιησις وهو يعني *to make God* ولاحظ أن الاسم *noun* يحتِّم – لغوياً – وجود الصفة *adjective* ولذلك جاءت الصفة Θεοποιητος تألَّه أو متألِّه.

ثالثاً: الفعل نفسه هو فعل آخر جاء من كلمة Θεος وهو فعل Θεοω ويعني يتأله أو يؤلِّه، واستخدم هذا الفعل في موضوع اتحاد الطبيعتين في المسيح عند كل من: غريغوريوس اللاهوتي التريتري، رسالة ١٠١ مجلد ٣٧: عامود ١٨٠. وكيرلس الكبير، الثالوث فصل ١٤ مجلد ٧٧: عامود ١١٥٢.

كما استخدم عن الإنسان عند غريغوريوس اللاهوتي التريتري في مقالة ٤٠: ٤٢ مجلد ٣٦: عامود ٤٢٠.

رابعاً: أما الكلمة Θεοσις فقد استخدمها من آباء الإسكندرية، القديس كيرلس – الثالوث فصل ١٤ مجلد ٧٧: ١١٥٢. وكذلك القديس غريغوريوس اللاهوتي التريتري مقالة ٣٩: ١٦ مجلد ٣٦ عامود ٣٥٣.

خامساً: الكلمة Θεον τελεω وقد وردت عند غريغوريوس التريتري في مجلد ٣٧: عامود ٤٦٥.

ولعل الأخوة الذين يحاربون الشركة باللفظ قادرون على ترجمة هذه الفقرة:

– Επει γαρ ουν εγιγνετ ανθρωπος Θεος,
Θεος τελειτ ανθρωπος εις τιμην εμην.
Carmina dogmatica 10.5-9

"حيث أن الله صار إنساناً،
هكذا الإنسان يكمِّل *perfected* كالله.
وهذا هو مجدي".

هل تتوقف العقيدة على استخدام لفظ يؤلَّه أو يتألَّه؟

أولاً: عندما يشرح كيرلس الأورشليمي سر الإفخارستيا يقول:

> **"عندما تشتركون في الجسد ودم المسيح، تصيرون من نفس الجسد ومن نفس الدم فيه، وبذلك نصبح حاملين المسيح فينا؛ لأن جسده ودمه قد انتشرا *Diffused* في كل أعضاء أجسادنا، وعن هذا يقول بطرس المبارك "تصبحون شركاء الطبيعة الإلهية" (٢ بطرس ١: ٤)"**. (التعليم عن الإفخارستيا ٤: ٣ – راجع النص اليوناني في نشرة معهد القديس فلاديمير ص ٢٧ – الترجمة الانجليزية ص ٦٦).

ثانياً: في تحرر وخلاص الإنسان يقول القديس غريغوريوس اللاهوتي التريتري عن الرب يسوع:

> **"هو يتنازل إلى مستوى إخوته في العبودية ومستوى العبيد، فيأخذ صورة غريبة عنه، ويحملني في ذاته مع كل ما لي، حتى يذيب ما فيَّ من شر، كما تذيب النارُ الشمعَ، أو الشمسُ ضبابَ الأرض، وحتى اشترك بهذا الاختلاط، في ما هو له"** (المقالة ٣٠: ٦ راجع الخطب ٢٧-٣١ اللاهوتية – منشورات المكتبة البوليسية – تعريب الأب يوحنا الفاخوري بيروت ١٩٩٣ ص ١١٢ - ١١٣).

والاختلاط هنا ليس هو اختلاط طبائع، بل هو وضع ما هو دنيء مع ما هو مقدس. أن ننال ما للمسيح دون فصل اللاهوت عن الناسوت، لا في الرب يسوع، ولا في المؤمنين أنفسهم؛ لأن هذا الفصل يهدم مجد القيامة، قيامة يسوع وقيامتنا؛ إذ يقول الرسول بولس عن الرب يسوع "الذي سوف يغيِّر شكل جسد تواضعنا ليكون συμμορφον مشابهاً لجسد مجده. وتعبير "جسد مجده"، هو تعبير خاص بقيامة الرب يسوع نفسه، وخاصٌ أيضاً بتحول كل إنسان ليكون مثل الرب، وهو الموضوع الذي شغل ١كور ١٥: ٣٩، ٤٢ - ٥٣.

وهو أيضاً تحوُّل الطبيعة الإنسانية من مجد إلى مجد "لأننا جميعاً بوجه غير مغطى (مكشوف، وليس مثل وجه موسى) نرى مجد الرب كما هو في مرآة ونتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد يُعطى من الرب الروح" (٢كور ٣: ١٨).

هذا لا يمكن أن يحدث بواسطة القوى المخلوقة الطبيعية. لا ينقل إلينا مجد المسيح إلاَّ المسيح نفسه. ولعلك عزيزي القارئ تكون قد لاحظت كيف حذف الأنبا شنودة – في محاضراته – هذه النقطة، واستخدم عبارة النبي أشعياء :"مجدي لا أعطيه لآخر"، دون أن يدرك أن سياق نص أشعياء يختلف، ودون أن يدرك أنه ضحية "الفصل"، ودون أن يدرك أنه – بذلك – يهاجم أساس المسيحية؛ لأننا سننال مجد المسيح نفسه، حيث لا يوجد نوعين من المجد: واحد إلهي، وآخر إنساني؛ لأن المجد الإلهي سيوهب لنا بسبب شركتنا في جسد مجده.

وما يجب علينا أن نلاحظه، أن الرسول بطرس – في الكلمات التي أزعجت الذين سقطوا في هاوية الهرطقات القديمة – يضع المجد قبل إعلان الشركة، إذ يقول الرسول: "قدرته الإلهية قد وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى بمعرفة الذي دعانا بالمجد والفضيلة. اللذين بهما قد وهب لنا المواعيد العظمى والثمينة لكي تصيروا بها (بالمواعيد) شركاء الطبيعة الإلهية (لا لكي يسجد الناس لنا كما يتصور الأنبا شنودة) هاربين من الفساد الذي في العالم بالشهوة" (٢بطرس ٢: ٣ – ٤).

ولذلك يقول الرسول:

"لهذا عينه وأنتم باذلون كل اجتهاد قدموا في إيمانكم فضيلة"، ثم يضيف بعد ذلك "معرفة – تعفف – صبراً – تقوى – مودة أخوية – محبة" (٢بطرس ١: ٤-٦).

"شركة، وشركاء"، واللغط اللغوي

لغوياً، استخدام كلمة "شركة" يستدعي استخدام حرف الجر "شركة في الطبيعة"، ولكن استخدام "شركاء" يستدعي الملكية، وبالتالي لا يوجد حرف الجر (في)، فليس نحن "شركاء في"، بل "شركاء الطبيعة الإلهية"، وهي أقوى في صياغتها عندما يحذف حرف الجر.

المرادفات التي لا يجب أن ننساها

أولاً: αφθαρσια ويرادفها αθανασια عدم الفساد = عدم الموت أو الخلود.

+ وأول من له عدم الموت – حسب الناسوت – هو المسيح نفسه، وهو ما شَغَل الفصل ٢٠ من تجسد الكلمة:

> **"لم يكن ممكناً أن يجعل الإنسان المائت غير مائت إلاَّ ربنا يسوع المسيح الذي هو الحياة ذاتها ... كان الجسد قابلاً للموت ... غير أنه بفضل اتحاده بالكلمة، فإنه لم يعد خاضعاً للفساد حسب طبيعته، بل بسبب أن كلمة الله حلَّ فيه، فإن الفساد لم يلحق به".**

ولأن "عدم الموت" – حسب تعبير الرسول – هو تعبيرٌ خاص باللاهوت "الله الذي له وحده عدم الموت" (١تيمو ٦: ١٦)[١]؛ لذلك أُعيدت نعمة عدم الموت أو عدم الفساد للإنسان:

> **"ما الذي أعطى للبشر اليقين بالخلود كما فعل صليب المسيح وقيامة جسده"** (تجسد الكلمة فصل ٥٠ راجع الترجمة العربية د. جوزيف فلتس ص ٤٩).

---

(١) راجع أيضاً مقالة المجامع للقديس أثناسيوس فصل ١٦ مجلد ٢٦ عامود ٧٠٨.

+ وهو ما يُعطى لنا بالتناول من جسد الرب ودمه، كما هو واضح في كل القداسات الأرثوذكسية. ولعل أقدم تعبير وصلنا من التاريخ هو للشهيد أغناطيوس الأنطاكي الذي يقول عن الإفخارستيا:

دواء عدم الموت Φαρμακον αθανασιας (الرسالة إلى أفسس ٢٠: ٢).

ثانياً: الكمال Τελειωσις

وحسب شرح القديس باسيليوس

"الكلمة يخلق، والروح يثبِّت، وما هو التثبيت سوى التكميل بالتقديس. والتكميل يعني الثبات وعدم التغير والتمسك بالصلاح، فلا تقديس بدون الروح القدس. وقوات السموات ليست مقدسة بطبيعتها" (الروح القدس ١٦: ٣٨ راجع الترجمة العربية – سلسلة آباء الكنيسة ١١، ص ١١٢).

"الروح هو الذي يعطي الكمال" (المرجع السابق ص ١١٣).

والكمال هو تشبُّه بالمسيح، لذلك يقول القديس باسيليوس:

"تدبير إلهنا ومخلصنا الخاص بالإنسان هو استرجاع الإنسان من السقوط والعودة من الاغتراب الذي حدث له بسبب المعصية إلى شركة مباشرة مع الله. لذلك السبب جاء المسيح، وحلَّ في الجسد، وعاش حسب المثال الذي نراه في الأناجيل، وتألم على الصليب، وقبر وقام؛ لكي يخلص الإنسان، عندما يتمثَّل بالمسيح ويعود إلى رتبة البنوة القديمة. والتشبُّه بالمسيح هو وحده الذي يقود إلى كمال الحياة ... فكيف نبلغ إلى التشبه به في موته (رو ٦: ٤ – ٥) أليس بالدفن معه في المعمودية" (الروح القدس ١٥ : ٣٥ ص ١٠٦).

ثم يقول:

"بالروح القدس
استعدنا سكنانا في الفردوس،
وصعودنا إلى ملكوت السموات،
وعودتنا إلى مكانة البنوة وحريتنا لأن ندعو إلهنا الآب،
وشركتنا في نعمة المسيح،
وتسميتنا أبناء النور،
وميراثنا في المجد الأبدي" (الروح القدس ١٥ : ٣٦ ص ١٠٨).

وأخيراً نقول لمن يكتب عن المعنى الحرفي، هذه هي كلمات باسيليوس الكبير:

"كل مَن يقف عند المعنى الحرفي ويشغل نفسه بحفظ الناموس
يصبح كمن صار قلبه مغلقاً بالمعنى الحرفي اليهودي" (الروح القدس فصل ٢١: ٥٢ ص ١٣٨)[١].

نسأل الرب يسوع أن يرحمنا،
ويرحم كل من تسول له نفسه العبث بالإيمان دفاعاً عن شخص أو جماعة، ونشراً للكذب والضلال لتأييد انفصال الإنسانية عن الثالوث،
وليكن معلوماً أن هذا هو ما يريده الشيطان نفسه.

بركة الآباء القديسين معنا جميعاً.

جورج حبيب بباوي

١٨ ديسمبر ٢٠٠٨

USA

---

(١) نرجو من القارئ مراجعة الفصل الخاص بحرف الجر "في" وهو فصل ٢٦ وفصل ٢٧ الخاص بحرف "مع" في كتاب الروح القدس للقديس باسيليوس.